جورنل أصول الدين ٤٦ (١) ٢٠١٨: ١١٩-١٤٤

منهج الكتاب والسنَّة في التعامل مع المذنبين والمعاتَبين بذكر أخطائهم لا أسمائهم

عبد الكريم توري
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية، karim.toure@usim.edu.my

محمد يوسف إسماعيل
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية، yusufismail @usim.edu.my

عبد مهيمن أحمد
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية، muhaimin@usim.edu.my

ملخص

هذه الدراسة محاولة من الباحثين لمعرفة منهج القرآن الكريم والسنّة النبوية الشَّريفة في تعاملهما مع الأفراد والجماعات مِن المؤمنين وغيرهم حين يقعون في الأخطاء وعند ذكر تلك الأخطاء، هل كان بالتلميح أو بالتصريح بأسمائهم؟ وما هو أسلوب القرآن الكريم والسنَّة النبوية عند ذكر أخطاء الصنفين الكافر والمؤمن؟ هل في أسلوبهما ائتلاف أم اختلاف؟ وقد توصَّل الباحثون بعد تتبّع الآيات وكثير مِن الأحاديث التي ذكرت أخطاء الصنفين الكافر والمؤمن أنَّ بين أسلوبهما اختلاف، فالقرآن الكريم لمح ولم يُصرِّح عند ذكر أخطاء الصِّنفين الكافر والمؤمن بأسمائهم إلا ثمانية أسماء ذكرهم بالاسم وذكرنا الحكمة مِن ذلك، وكان يتلطّف مع المؤمنين عند ذكر أخطائهم ويغلظ على الكفرة والمنافقين. أمّا السنَّة النبوية فإنَّها كانت تتعامل في أغلب الأحاديث مع المؤمنين فقط دون الكفّار، فقد كان رسول الله يتعامل مع الصَّحابة بأسلوب مختلف على تفاوت ما بينهم في العلم والإيمان والأسبقية في الإسلام مِن كبارهم ومن دونهم مِن الأعراب وحديثي العهد بالجاهلية، فكان بخلاف القرآن الكريم يُشدِّد على كبار الصَّحابة ويتلطَّف بالأعراب وحديثي العهد بالجاهلية. وأخيراً يوصي الباحثون الدعاة في اتباع منهج القرآن الكريم في عدم ذكر الاسم عند ذكر الخطاء وبتلطُّف بحديثي العهد بالإسلام.

الكلمات الدالة: منهج، الأخطاء، الأسماء

Highlight the Acts, not the Doers: The Qur'an and Sunnah Method in Handling Sinners and Wromg-doers

Abstract

This study is an attempt by the researchers to know the methodology of the Qur'an and Sunnah while dealing with individuals and groups of believers and none believers when they commit an error, how the Qur'an and Sunnah mention those errors, either to give a hint or to mention names? What is the style of the Qur'an and Sunnah while mentioning

errors from the two parties, the infidels and those who have faith? Did both used the same style or each has its own unique style? Researchers have concluded after following almost all verses and many Ahadith, that there is a different between the style of the Qur'an and the Sunnah. The Qur'an, in dealing with both believers and none believers, did not mention names of those who committed errors but gave hints, except for eight persons with reasons mentioned by the researchers. The Sunnah dealt almost with believers only but categorise them into senior companions, new believers and Bedouins, while being soft with the new believers and the Bedouins, the Prophet was strict with seniors when they commit an error. The researchers suggest that Muslim preachers should follow the method of the Qur'an and Sunnah in correcting the errors of believers of all categories.

Keywords: *methodology, errors, names*

المقدمة

صنَّف الله تعالى البشر في القرآن الكريم إلى صِنفين اثنين كافر ومؤمن، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. التغابن: ٢.

وصنَّف المؤمنين حسب قوة تمسُّكهم بكتاب الله تعالى إلى ثلاث أصناف، فقال عزّ من قائل: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ... ﴾. فاطر:٣٢.

وصنَّف الكافرين إلى صنفين هما أهل الكتاب – مِن اليهود والنَّصارى – والمشركون، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾. البيِّنة ٦.

والسِّمة البارزة المشتركة في صنف الكافرين في تعاملهم مع صنف المؤمنين هي العداوة المعلنَة ومحاولة إطفاء نور الإسلام بكل ما أعطوا من القوّة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾. النِّساء: ١٠١. ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾. المائدة: ٨٢.

أمّا المنافقون وإن كانوا ينتسبون إلى الإسلام شكلاً وظاهراً، إلا أنَّ عالِم الغيب والشَّهادة والعليم بذات الصّدور الذي لا يخفى عليه خافية ألحقهم بالكفّار، فقال: [أَلَمْ

تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ]. الحشر:١١.

كيف تعامل القرآن الكريم والسنَّة النبوية عند ذكر أخطاء أفراد أو جماعات من صنف المؤمن؟ فهم وإن كانوا مؤمنين إلا أنَّهم ليسوا معصومين، فقد كانوا يقعون في الأخطاء في أوقات الضعف البشري.

كيف كان القرآن الكريم والسنَّة النبوية ينبِّئهم بأخطائهم؟ هل كان بالتلميح أو بالتصريح بأسمائهم؟ وكيف تعامل كذلك مع المشركين وأهل الكتاب والمنافقين؟ هل ذكرا أسمائهم حين كانوا يتمادون في طغيانهم للنيل من رسول الله شخصياً ومن الإسلام والمسلمين؟ وما هو أسلوب القرآن الكريم والسنَّة النبوية عند ذكر أخطاء الصِّنفَين الكافر والمؤمن؟ هل في أسلوبهما ائتلاف أم اختلاف؟

هذا ما سوف تحاول الدراسة الإجابة عليها في مبحثين **أوَّلهما**: منهج القرآن الكريم في التعامل مع المذنبين في ذكر أخطائهم لا أسمائهم في النقاط التالية:

أولاً: ذكر القرآن الكريم أسماء المذنبين.

ثانياً: منهج القرآن الكريم في عتاب الصَّحابة

ثالثاً:مواجهة القرآن المعاتب وجه لوجه.

رابعاً: الحكمة في ذكر القرآن الكريم لأسمائهم.

خامساً :سر ذكر القرآن الكريم لاسم أبي لهب.

سادساً : الحكمة في عدم ذكر القرآن الكريم صراحة أسماء المذنبين والمعاتَبين.

سابعاً: تلطّف القرآن الكريم بالمؤمنين عند عتابهم.

ثامناً: تغليظ القرآن الكريم على الكفرة والمنافقين عند ذكر أخطائهم.

ثانيهما: منهج السنة النبوية في التعامل مع المذنبين والمعاتَبين بذكر أخطائهم لا أسمائهم في النقاط التالية:

أولاً: ذكر القرآن الكريم أسماء المذنبين

عند إمعان النَّظر في سور القرآن الكريم وآياته نلحظ أنَّ القرآن الكريم عند ذكر أخطاء هذان الصنفين من المؤمنين والكفار من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، يلمح ولا يصرَّح بأسمائهم، ولم يصرَّح القرآن الكريم في كل سوره وآياته عند ذكر بعض الأخطاء والذنوب بأي من أسماء الصنفين سواء مِن عباده الصّالحين أو من الطواغيت إلا ثمان أسماء، وهم: آدم أبو البشر وآزر وفرعون وجالوت وهامان وقارون والسّامري وأبي لهب، وهي كما في الآيات التالية.

١. [...وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى]. طه:١٢١- ١٢٢.

٢. [وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ]. الأنعام: ٧٤.

٣. [وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ]. القصص: ٣٨ – ٤٠.

٤. [وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ]. غافر: ٣٦ -٣٧. [إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ]. القصص: ٧٦.

٥. [فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ]. البقرة: ٢٥١.

٦. [قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ]. طه: ٨٥. [قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ]. طه: ٨٧. [قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ]. طه: ٩٥.

٧. [تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ]. المسد: ١ – ٥.

ثانياً: منهج القرآن الكريم في عتاب الصَّحابة

منهج القرآن الكريم حين يعاتب صحابي أو بعض الصَّحابة أن لا يواجه إليه أو إليهم الخطاب مباشرة بل يعمِّم الخطاب كقوله تعالى [يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ]. الأنفال: ٢٧.

فقد نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر في أمر بني قريظة[1] ولكن الله عمَّ الخطاب ولم يوجه أبي لبابة بالخطاب عند ذكر عتابه أو يذكر اسمه.

وكذلك حين وقع حاطب بن أبي بلتعة فيما وقع فيه مِن محاولة إفشاء سر رسول للمشركين قبل فتح مكة، أوحى الله تعالى ذلك إلى رسوله[2]، فقال تعالى: [يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ]. الممتحنة: ١.

فحاطب وحده هو الذي وقع في هذا الخطأ ولكن القرآن الكريم بلطفه لم يواجه حاطباً بالعتاب أو بذكر اسمه بل عمَّ الخطاب، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السَّبب.

وكذلك في حادثة الإفك[3]، فالذين تداولوا وتكلَّموا فيها إنَّما كانوا عدداً بسيطاً مِن الصَّحابة [إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ].النور: ١١.

---

1 Abū al-Fiḍā' Ismā'īl bin Kathīr, *Tafsīr al-Qur'an al-'Aẓīm* (al-Madinah al-Munawwarah: Dār al-'Ulūm wa al-Ḥukm, 1993), 2 :288.

2 Ibn Kathīr, *Tafsīr al-Qur'an al-'Aẓīm*, 4:345

3 Ḥadīth riwāyah al-Bukhārī, Kitāb al-Shahādāt, bāb Ta'dīl al-Nisā' Ba'ḍihinna Ba'dan, ḥadīth raqmun 2661. Unẓur Muḥammad bin Ismā'īl al-Bukhārī, *Al-Jāmi' al-Musnad al-Ṣaḥīḥ al-Mukhtaṣar min Umūr Rasul Allāh sallallah alayhi wa sallam wa Sunanihi wa Ayyahmihi,* ṭab'ah 1 (al-Qahirah: Maktabah al-Ṣafā, 2002).

ولكن القرآن الكريم لم يذكر أسمائهم بل عمَّ الخطاب وعاتب الجميع [إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ]. النور: ١٥ – ١٦.

ثم وجَّه إليهم جميعاً الوعظ والإرشاد والتخويف دون ذكر أي اسم منهم. فقال تعالى: [يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ]. النور: ١٧ – ١٩.

وقوله تعالى: [وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا]. الأحزاب: ٣٦.

فقد نزل في زينب بنت جحش الأسدية رضي الله تعالى عنها قبل أن تصبح أمّاً للمؤمنين وذلك حين خطبها رسول الله لزيد بن حارثة فاستنكفت منه فنزلت قوله تعالى: [وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا].

فقالت إذاً لا أعصي الله ورسوله، قد رضيته لي يا رسول الله منكحاً[4]. فالآية لم تذكر اسم زينب رضي الله تعالى عنها، بل عمَّت الخطاب.

ثالثا: مواجهة القرآن المعاتب وجه لوجه

ولئن كان القرآن الكريم لم يُصرِّح باسم أي مؤمن وقع في الخطأ غير أبي البشر آدم ، ولم يواجه في خطابه عند ذكر الخطأ الذي وقع فيه صحابي أو بعض الصَّحابة مباشرة إلا أنَّه خرج على غير عادته عن هذا المنهج ليخاطب مباشرة وبالضمير المخاطب دون الغائب أو التعميم في آية واحدة في القرآن كلّه، فقد واجه وخاطب فيها مباشرة وجه لوجه المعاتَب أو المعاتَبين، وهما صحابيتان جليلتان بل أمّان للمؤمنين، عائشة وحفصة رضي الله تعالى عنهما وأرضاهما.

[4] Ibn Kathīr, *Tafsīr al-Qur'an al-'Aẓīm*, 3:470.

قال الله تعالى: [إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ]. التحريم: ٤.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي اللتين قال الله تعالى ''إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا'' حتى حجَّ وحججتُ معه وعدل وعدلتُ معه بإداوة فتبرَّز ثم جاء فسكبتُ على يديه منها فتوضأ فقلتُ له: يا أمير المؤمنين مَن المرأتان من أزواج النَّبي اللتان قال الله تعالى ''إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا'' قال: واعجبا لك يا ابن عباس، هما عائشة وحفصة ثم استقبل عمر الحديث يسوقه...''[5]

فهذه هي الآية الوحيدة في القرآن الكريم كلّه التي واجه الله تعالى فيها عند ذكر العتاب المعاتَب دون التعميم، ولا أظنُّك يخفى عليك السِّر في ذلك، وهو أنَّ هذا الأمر لا يصدق عليه قول العلماء بأنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السَّبب، لأنَّه كان في أمر خاص بين رسول الله وبعض أمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهنَّ وأرضاهنّ، فخاطبهنَّ الله تعالى وحذَّرهن لأجل مقام رسول الله .

أمّا قوله تعالى: [وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ... الآية]. التوبة: ١١٨.

فهذه الآية وإن كانت نزلت في كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية خاصة[6] إلا أنَّ الله تعالى لم يواجه لهم فيها الخطاب مباشرة بل الخطاب فيها موجَّه لرسول الله لهم، خلاف الآية [إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا...]. فإنَّ الخطاب فيها موجه مباشرة لأم المؤمنين عائشة وحفصة رضي الله تعالى عنهما وأرضاهما.

رابعاً : الحكمة في ذكر القرآن الكريم لأسمائهم

لعل الحكمة في ذكر القرآن الكريم اسم آدم أبو البشر – ولا مقارنة بينه وبين الذين ذُكر أسمائهم من الكفرة صراحة – هي أنَّ آدم هو أبو البشر رمز الإنابة إلى الله تعالى، فهو وإن

[5] Al-Bukhārī, *al-Ṣaḥīḥ*, Kitāb al-Nikāḥ, bāb Maw'iẓah al-Rajulī ibnatahu li ḥāli zawjihā, al-ḥadīth raqmun 5191, wa Kitāb Tafsīr al-Qur'an, al-ḥadīth raqmun 4913. Wa Muslim, *Ṣaḥīḥ Muslim*, Kitāb al-Ṭalāq, al-ḥadīth raqmun 1479.

[6] Al-Bukhārī, *al-Ṣaḥīḥ*, Kitāb al-Maghāzī, al-ḥadīṯh raqmun 3318.

كان قد أخطأ إلا أنَّه لم يطغ ولم يتكبَّر على الله، لم يُصر على معصيته بل تاب إلى الله تعالى فتاب الله عليه واصطفاه واجتباه. [...وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى].

أمَّا آزر وفرعون وجالوت وهامان وقارون والسّامري وأبي لهب، فقد ذُكِر أسمائهم في القرآن الكريم لأنَّهم كانوا رموز الشِّرك والتكبّر والغرور والطغيان والجبروت والنِّفاق. [قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا]. مريم: ٤٦. [قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ]. الشعراء: ٢٩. [... أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى]. النّازعات: ٢٤.

فعلى المرء أن يختار لنفسه أي الصنفين ينتسب. وكأنَّ الله يقول للبشرية أجمع مِن الصنفين الكافر والمؤمن، هذا أبوكم آدم كان قد أخطأ فتاب إلى الله فتاب الله عليه، فمن أخطأ منكم يا بني آدم وأناب إلى الله تعالى مثل أبيه الأصل تاب الله عليه وقَبِل توبته، ومن تمادى في كفره وطغيانه فإنَّ مصيره مصير فرعون وأمثاله [قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى]. طه: ١٢٣ –١٢٦.

والثّمانية الذين ذكر القرآن الكريم أسمائهم، سبع منهم مِن الأمم الغابرة إلا أبا لهب الذي عاصر التنزيل، فهو الوحيد مِن الكفرة المشركين المذكور أسمائهم في القرآن الكريم ممن عاصر التنزيل.

خامساً: سر ذكر القرآن الكريم لاسم أبي لهب

ولعل في ذكر القرآن الكريم اسم أبي لهب سرٌّ، وهو إعجاز غيبي للقرآن الكريم. فهذه السّورة مِن أولى السّور نزولاً بمكة بعد جحر رسول الله بالدعوة الجديدة، فقد سبق في علم الله أنَّ أبا لهب لن يؤمن به وبرسوله محمَّد فقال: [... سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ].

أي حكم الله عليه بالدخول النّار لعدم إيمانه به وبرسوله محمَّد مذ أولى أيّام الدعوة الجديدة، فكان على أبي لهب لو أراد أن يثبت ''كذب'' محمَّد أن يتظاهر بالإسلام ولو

ليوم واحد ليحرج محمَّد ويقول ها أنا ذا قد آمنت بالله وبدينه الجديد ومحمَّد قد أخبر أنِّي لن أومن برسالته وسأدخل النّار، ولكنَّه لم يفعل ذلك، فهذا إعجاز غيبي أخبر به الله تعالى في كتابه، وكذا كان الأمر، لم يؤمن بالله وبرسوله ومات كافراً.

سادساَ: الحكمة في عدم ذكر القرآن الكريم صراحة أسماء المذنبين

أمّا عن الحكمة في عدم ذكر القرآن الكريم لأسماء الكفرة المشركين والمنافقين الذين عاصروا التنزيل غير أبي لهب إلا بالتلميح فتتلخَّص في نقاط ثلاث وهي:

١. القاعدة الذهبية التي ذكرها أهل العلم بأنَّ "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب".

فالآية تكون قد نزلت في شخصٍ معيَّنٍ ولكن حكمها عام وشامل للجميع وليس لذلك الشَّخص فحسب. فلو نزلت الآية باسمه لَرُبَّما خُيِّل إليه أو لغيره أنَّها خاصة به دون الناس، وهذا ما قد حدث بالفعل في سبب نزول الآية: [وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ]. هود: ١١٤. لولا أنَّ رسول الله بيَّن ووضَّح الأمر. روى البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود أنَّ رجلاً أصاب مِن امرأة قُبْلة فأتى النَّبي فأخبره فأنزل الله عز وجل وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، فقال الرَّجل: يا رسول الله ألي هذا؟ قال: "لجميع أمتي كلهم[٧]".

عن عبد الله قال جاء رجل إلى النَّبي فقال يا رسول الله إنِّي عالجتُ امرأة في أقصى المدينة وإنِّي أصبتُ منها ما دون أن أمسَّها فأنا هذا فاقض فيَ ما شئتَ. فقال له عمر لقد سترك الله لو سترتَ نفسك قال فلم يرد النَّبي شيئاً فقام الرَّجل فانطلق فأتبعه النَّبي رجلاً دعاه وتلا عليه هذه الآية: وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ. فقال رجل مِن القوم: يا نبي الله هذا له خاصة؟ قال: "بل للناس كافة[٨]".

---

[7] Al-Bukhārī, *al-Ṣaḥīḥ*, Kitā al-Īmān, bāb Ḍalam wa Taḍallam, al-ḥadīth raqmun 1:118.

[8] Riwāyah Muslim, kitāb al-Tawbah, al-ḥadīth raqmun 2767. Unẓūr Muslim bin al-Ḥajjāj, "Ṣaḥīḥ Muslim" (Beirut: Dār Ihyā'al-Turath al-'Arabī, 2000).

٢. إنّما الأمور بخواتيمها والإسلام يجب ما قبله. بعض مَن تأخَّر إسلامهم وخاصة مِن مسلمة الفتح، كان قد نزلت في بعضهم آيات قبل إسلامهم لأمور فعلوها ضد الإسلام والمسلمين، فلو كان القرآن الكريم صرَّح بأسمائهم في هذه الآيات التي نزلت في مواقفهم ضد الإسلام قبل إسلامهم لتحرَّجوا بذلك وهم مسلمون يعيشون بين ظهراني بقية الصَّحابة، وبعضهم قد أبلى بلاء حسناً بعد إسلامهم.

فمِن فضل الله تعالى ولطفه بهم لم يُصرِّح بأسمائهم في هذه الآيات، لأنّه تعالى سبق في علمه أنَّ بعضهم سيؤمنون فلم يذكر أسمائهم في أمر سلبي مِن محاربة الله ورسوله.

فمِن ذلك ما ذكره غير واحد مِن المفسرِّين أنَّ قوله تعالى: [الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ]. آل عمران: ١٧٣.

قال مجاهد ومقاتل وعكرمة والكلبي: [...الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ...]. هو نعيم بن مسعود الأشجعي[9].

و[... إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ...]. المراد بالناس الثاني هو أبو سفيان وأصحابه ورؤساء عسكره.

ونعيم بن مسعود الأشجعي هذا هو الذي جاء إلى رسول الله حين حاصرت قريش والأحزاب من غطفان وبني قريظة المدينة المنورة في غزوة الخندق، وقد ألقى الله الإسلام في قلبه في لحظة حرج وأسلم دون أن يعلم به أحد من قريش أو قومه غطفان، وكان وضع المسلمين كما أخبرنا الله تعالى: [إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا]. الأحزاب: ١٠.

فقال يا رسول الله، إنِّي قد أسلمتُ، وإنَّ قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني ما شئتَ. فقال له رسول الله : إنَّما أنت رجل واحد، فخذَل عنّا ما استطعتَ، فإنَّ الحرب خدعة[10]، وهذا ما فعله نعيم بن مسعود τ شتَّت كلمة الأحزاب فتفرَّقوا، وكفى الله المؤمنين القتال.

---

[9] Muḥammad bin Aḥmad al-Anṣārī al-Qurṭubī, *al-Jāmi‘ li Aḥkām al-Qur’an*, tab‘ah awwal (Beirut: Dār al-Fikr, 1999), 2:262.

[10] Ṣafī al-Dīn al-Mubārakfūrī, *al-Raḥīq al-Makhtūm,* ṭab‘ah 17 (al-Mansurah : Dār al-Wafā’, 2005), 275

ولذلك نهى الله نبيه حين دعا على بعض المشركين بأسمائهم فقال: [لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ]. آل عمران: ١٢٨.

ذلك أنَّ دعاء رسول الله مستجاب، وقد سبق في علم الله أنَّ بعض هؤلاء سوف يسلمون في نهاية الأمر، فنهى نبيه أن يدعو عليهم.

عن سالم عن أبيه أنَّه سمع رسول الله إذا رفع رأسه مِنَ الرَّكوع من الرَّكعة الآخرة من الفجر يقول: "اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً" بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده ربَّنا ولك الحمد. فأنزل الله [لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ][11]. وفي رواية كان رسول الله يدعو على صفوان بن أميَّة وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام فنزلت: [لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ].

وفي رواية مسلم، أنَّ رسول الله كان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبِّر ويرفع رأسه (سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد) ثم يقول وهو قائم: اللهم انج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم كسني يوسف. اللهم العن لحيان، ورعلاً، وذكوان، وعصيَّة، عصت الله ورسوله، ثم إنَّه ترك ذلك لما أنزل الله: [لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ][12].

وفي الترمذي، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه، قال: قال رسول الله يوم أحد: اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن صفوان بن أميَّة، قال: فنزلت: [لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ]، فتاب الله عليهم، فأسلموا فَحَسُنَ إسلامهم[13]".

وسهيل بن عمرو هذا كان مِن أمره يوم الحديبية حين دعا رسول الله علي بن أبي طالب فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل بن عمرو: لا أعرف هذا، ولكن

[11] Al-Bukhārī, *al-Ṣaḥīḥ*, Kitāb Tafsīr al-Qur'an, al-ḥādīṯh raqmun 4559 wa al-ḥadīth raqmun 3070.

[12] Muslim bin Ḥajjāj, *Ṣaḥīḥ Muslim*, kitāb al-Masājid, al-ḥadīth raqmun 675.

[13] Riwayat al-Tirmidī, kitāb Tafsīr al-Qur'an, al-ḥadīṯh raqmun 3004. Unẓur Muḥammad bin 'Īsā al-Sulāmi al-Tirmidhī, *al-Jāmi' al-Ṣaḥīḥ Sunan al-Tirmidhī*, ṭab'ah 1 (Beirut: Dār Iḥyā' al-Turath al-'Arabiyy, 2000).

اكتب: باسمك اللهم، فقال رسول الله: "اكتب باسمك اللهم. هذا ما صلح عليه محمَّد رسول الله، سهيل بن عمرو"، فقال سهيل بن عمرو: ولو شهدت أنكَّ رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب هذا ما اصطلح عليه محمَّد بن عبد الله، وسهل بن عمرو..[14] فأنزل الله تعالى: [إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا]. الفتح: ٢٦.

عُرِف سهيل بن عمرو بخطيب قريش، قال عمر بن الخطاب للنَّبي: دعني أنزع ثَنيَّتي سهيل فلا يقوم علينا خطيباً، فقال رسول الله : دَعْها، فلعلها أن تسرَّك يوماً. فلمات مات النَّبي قام سهيل بن عمرو فقال لهم – لأهل مكة –: مَن كان يعبد محمَّداً فإنَّ محمَّداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت.[15]

٣. المنافق أحقر مِن أن ينال شرف ذكر اسمه في القرآن الكريم. فكل الآيات التي تعرَّضت لذكر المنافقين إنَّما أشارت إليهم بالضمير دون التصريح بالاسم وأحياناً بعبارات قاسية تجاههم، والآيات التالية تبرهن على ذلك.

[وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ]. البقرة: ٢٠٤ – ٢٠٦.

تأمَّل كلمات: أَلَدُّ الْخِصَامِ.. فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ. ذكر ابن كثير أنَّها نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، جاء إلى رسول الله وأظهر الإسلام وفي باطنه خلاف ذلك[16].

[وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ]. التوبة: ٨٤.

---

[14] Ibn Kathīr, *Tafsīr al-Qur'an al-'Aẓīm*, 4 :198.
[15] Ibn Ḥajar al-'Asqalānī, *al-Iṣābah fī Tamyīz al-Ṣaḥābah* (Beirut : Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, 1995), 3 :177. Tarjamah raqmun 3585.
[16] Ibn Kathīr, *Tafsīr al-Qur 'an al-'Aẓīm*, 1:233.

قال ابن كثير: أمر الله تعالى رسوله أن يبرأ من المنافقين، وألا يصلي على أحد منهم إذا مات، وألا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له؛ لأنَّهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا عليه. وهذا حكم عام في كل من عُرِف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين[١٧].

[إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ]. النور: ١١.

قال ابن كثير: وأمّا المنافق عبد الله بن أبي بن سلول فهو الذي كان يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره منهم... وقال في موضع: ... ثم الأكثرون على أنَّ المراد بذلك إنمَّا هو عبد الله بن أبي بن سلول –قبحه لله ولعنه[١٨].

[هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ]. المنافقون: ٦ – ٨. قال ابن كثير أنَّها نزلت في عبد الله بن أُبي بن سلول رأس المنافقين وجماعته[١٩].

سابعاً: تلطّف القرآن الكريم بالمؤمنين عند عتابهم و ذكر أخطائهم

عند التأمّل في الآيات التي تذكر بعض الأخطاء لبعض الصَّحابة ، نلحظ أنَّ الله تعالى بعد ذكر الخطأ يختم الآية أو الآيات بشتَّى الرَّغائب وذكر سعة رحمته وفضله على المؤمنين، وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ]. آل عمران: ١٢١ – ١٢١.

تأمَّل قوله تعالى: [... وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا...]. روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: نزلت هذه الآية فينا [... إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا...] بني سلمة وبني حارثة وما أُحِبُّ أنَّها لم تنزل والله يقول: [... وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا...] [٢٠]أي الله ولي

[17] Ibn Kathīr, *Tafsīr al-Qur ʻan al-ʻAẓīm*, 2 :362.
[18] Ibn Kathīr, *Tafsīr al-Qur ʻan al-ʻAẓīm,* 3 :264.
[19] Ibn Kathīr, *Tafsīr al-Qur ʻan al-ʻAẓīm*, 4 :372.
[20] Al-Bukhārī, *al-Ṣaḥīḥ*, kitāb al-Maghāzī, al-ḥadīth raqmun 4051 wa kitāb Tafsīr al-Qur'an, al-ḥadīth raqmun 4558.

الطائفتان وإن همَّتا ما همّتا به مِن أمر عظيم وهو الرجوع إلى المدينة وتخاذل رسول الله في مثل هذا الوقت الحرج.

نزلت هذه الآية في واقعة أُحد، وذلك حين كادت طائفتان من جيش المسلمين أن تجبنا وتضعفا وهمتا بالرجوع وهما بنو سلمة وبنو حارثة وذلك حين خرج رسول الله لأُحد بألف من أصحابه فلما قاربوا عسكر الكفرة وكانوا ثلاثة آلاف انخذل عبد الله بن أبي بثلث الجيش وقال: علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فَهَمَّ الحيّان من الأنصار بالرُّجوع فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله وذلك قوله تعالى [وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا] أي ناصرهما ومتولي أمرهما[٢١]. مع ما هَمّوا فعله مِن تخاذل رسول الله في حرج كهذا، وصفهم الله بأنَّه وليهما، ولذلك قال جابر ''وما أُحِبُّ أنَّها لم تنزل''.

[وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ]. آل عمران: ١٥٢.

نزلت كذلك هذه الآية في واقعة أحد [وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ...] أي وفى الله لكم ما وعدكم به من النصر على عدوكم [إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ] أي تقتلونهم قتلا ذريعا وتحصدونهم بسيوفكم بإرادة الله وحكمه [حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ]. أي حتى إذا جبنتم وضعفتم واختلفتم في أمر المقام في الجبل [وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ] أي عصيتم أمر الرسول بعد أن كان النَّصر حليفكم، وذلك أنَّ النَّبي وضع خمسين من الرُّماة فوق الجبل وأمرهم أن يدفعوا عن المسلمين وقال لهم: لا تبرحوا أماكنكم حتى ولو رأيتمونا تخطفتنا الطير، فلما التقى الجيشان لم تقو خيل المشركين على الثبات بسبب السِّهام التي أخذتهم في وجوههم مِنَ الرُّماة فانهزم المشركون، فلمّا رأى الرُّماة ذلك قالوا: الغنيمة الغنيمة ونزلوا لجمع الأسلاب، وثبت رئيسهم ومعه عشرة فجاءهم المشركون من خلف الجبل فقتلوا البقية من الرُّماة ونزلوا على المسلمين بسيوفهم من خلف ظهورهم فانقلب النَّصر إلى هزيمة للمسلمين.

[21] Muḥammad ʿAlī al-Ṣābūnī, *Ṣafwah al-Tafāsīr* (al-Qahirah: Dār al-Ṣābūnī, d.t.), 1:227.

فذلك قوله تعالى [مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ] أي من بعد النصر [مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا] أي الغنيمة وهم الذين تركوا الجبل [وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ].أي ثواب الله وهم العشرة الذين ثبتوا في مركزهم مع أميرهم عبد الله بن جبير ، ثم استشهدوا [ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ].

أي ردَّكم بالهزيمة عن الكفّار ليمتحن إيمانكم [وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ] أي صفح عنكم مع العصيان. وفيه إعلان بأن الذنب كان يستحق أكثر مما نزل بهم لولا عفو الله عنهم، ولهذا قال:

[وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ]. أي ذو مَنٍّ ونعمة على المؤمنين في جميع الأوقات والأحوال[٢٢]. انظر إلى هذا التلطُّف بالمؤمنين وإظهار لهم سعة رحمته مع ما فعلوه مِن عصيان أمر رسول الله .

وختم الآية بقوله: [وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ]. ولم يقل على الناس كقوله تعالى [ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ]. يوسف: ٣٨. و[اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ]. غافر: ٦١.

لأنَّ فضل الله المذكور في آية يوسف وغافر هو فضل الله العام لجميع خيراته ونعمه على جميع خلقه مؤمنهم وكافرهم كونه تعالى ربُّهم وخالقهم ورازقهم وكون الناس خلقه.

أمّا الفضل المذكور في آية آل عمران، فهو فضل الله الخاص للمؤمنين، لأنَّ الآية جاءت في مَعْرَض ذكر الله لبعض الذنوب التي ارتكبها بعض المؤمنين وفضل الله عليهم أن عفا عنهم رغم عِظم ما ارتكبوها.

[وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ]. التوبة: ١٠٢ – ١٠٤

[22] Al-Ṣābūnī, *Ṣafwah al-Tafāsīr*, 1 :237.

نزلت هذه الآية في أبي لبابة بن عبد المنذر τ وذلك حين بعثه رسول الله إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله ، فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك –وأشار بيده إلى حلقه –أي: إنَّه الذبح، ثم فطن أبو لبابة، ورأى أنَّه قد خان الله ورسوله ، فحلف لا يذوق ذواقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة، فربط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيّام، حتى كان يخر مغشياً عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله . فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السَّارية، فحلف لا يحله منها إلا رسول الله بيده، فحله ، فقال: يا رسول الله، إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة، فقال يجزيك الثلث أن تصدق به. فنزلت قوله تعالى: [يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ][23]. الأنفال: ٢٧.

تأمّل كيف ختم الله تعالى الآية بقوله: [إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ]. ثم أتبعه بقوله: [أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ...] كل ذلك ليرفع مِن معنويات عباده الذين أخطأوا حتى لا ييئسوا ويعلموا أنَّ الله يقبل توبتهم، ويتشجَّعوا في عمل الطاعات، فالآية وإن كانت قد نزلت في أبي لبابة إلا أنَّها عامة وشاملة لجميع المذنبين والخطّائين. تأمّل كذلك قوله تعالى [يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ]

ولم يقل ''يقبل التوبة عن المؤمنين'' لأنَّه في القرآن الكريم تأتي كلمة ''العباد'' دائماً مقرونة بالمؤمنين إلا في آية واحدة فقد جاءت في الكفّار وهي قوله تعالى:

[وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ]. الفرقان: ١٧.

فهذه الآية تتحدَّث عن مشهد من مشاهد يوم القيامة، والعبودية هناك عبودية كسرية وقهرية لا طواعية، وتلك العبودية لا فائدة منها، لأنَّ الله تعالى إنَّما كان يريد منّا عبودية الطواعية وهي إنَّما تكون في الدنيا فقط لا في الآخرة، ولذلك وصف الله تعالى أشرف وأكرم خلقه بوصف العبودية فقال تعالى:

[سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ]. الإسراء: ١.

[23] Ibn Kathīr, *Tafsīr al-Qur'an al-'Aẓīm*, 2 :288.

وقوله تعالى: [وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا].الجن: ١٩. وقال في المؤمنين: [وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا]. ٦٣.

فتبيَّن مِن ذلك أنَّ قوله تعالى: [يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ] خاص بعباده المؤمنين دون غيرهم. فما ألطفه وأرحمه بعباده المؤمنين.

[وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ]. النور: ٢٢.

هذا من حلمه سبحانه وتعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم. هذه الآية نزلت في الصِّديق، حين حلف ألا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة بعدما قال في أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها ما قال في حادثة الإفك، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلَّم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على من أقيم عليه، شرع الله تبارك وتعالى وله الفضل والمنة، يعطف الصِّديق على قريبه ونسيبه، وهو مسطح بن أثاثة، فإنَّه كان ابن خالة الصِّديق، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها، وضُرب الحد عليها. وكان الصِّديق معروفاً بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب. فلمّا نزلت هذه الآية إلى قوله: [أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ]. أي: فإنَّ الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك. فعند ذلك قال الصِّديق: بلى، والله إنا نحب يا ربنا أن تغفر لنا. ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعة أبدا[٢٤].

[24] Ibn Kathīr, *Tafsīr al-Qur'an al-'Aẓīm*, 3 :267.

ثامناً : تغليظ القرآن الكريم على الكفرة والمنافقين عند ذكر أخطائهم

إذا كان الله تعالى في عتابه لبعض المؤمنين لَطَف بهم وقرن هذا الخطاء برحمته وسعة مغفرته، فإنَّ الأمر ليس كذلك مع المنافقين، فإنَّه أغلظ القول عليهم وقرن ذنوبهم بالعذاب وعدم المغفرة، كقوله تعالى في آية التوبة التالية.

[الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ]. التوبة: ٧٩ – ٨٠.

رأينا في الآية [وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ...]. كيف أنَّ الله تعالى رغَّب ولطف بالصِّديق كي يعفو ويصفح عن مسطح بن أثاثة، فهو، أي مسطح وإن كان قد أخطأ في حقِّه وفي حق بنته أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها وأرضاه ومسَّ بالبيت النُّبوة الطّاهر في أمر خطير غاية الخطورة، إلا أنَّه مؤمن بالله حقاً، بشر غير معصوم أذنب فتاب وتاب الله عليه. أمّا رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الذي وقع في الذَنب نفسه مع مسطح فلم يغفر الله له، بل توعَّده بعذاب عظيم. فقال عز من قائل:

[إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ]. النور: ١١.

ثانياً: منهج السنة النبوية في التعامل مع المعاتَبين و المذنبين بذكر أخطائهم لا أسمائهم

رأينا في المبحث السَّابق منهج القرآن الكريم في ذكر أسماء المعاتَبين والمذنبين مِن الصِّنفين المؤمنين والكفرة والمنافقين، أمّا السنَّة النبوية فإنَّ منهجها في ذكر أسماء المعاتَبين والمذنبين تباين عن منهج الكتاب في بعض شيء كما سيتَّضح ذلك في السطور التالية.

الأسماء التي ذكرها لنا القرآن الكريم يمثِّلون تاريخ لمرحلة طويلة من تاريخ البشرية، بدأ من تاريخ الإنسان الأوَّل أبو البشر آدم حيث بدأ الصِّراع في السَّماء قبل الأرض بين الحق

والباطل، الصِّراع بين آدمυ وإبليس، فضعُف آدم في الجولة الأولى لهذا الصِّراع ولكنَّه تاب فتاب الله عليه.

[وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى]. طه: ١١٥ – ١٢٢.

ثم واصل آدم هذا الصِّراع مع إبليس على الأرض بوعد من الله تعالى أن يعينه وبنيه في صراعهم هذا مع إبليس [قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا ضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى]. طه: ١٢٣ – ١٢٤. [أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ]. يس: ٦٠.

ولكن كثير من بني آدم بعد هبوط آدم طغوا وتجبَّروا وأشركوا بالله ما لم ينزِّل به سلطاناً، فمنهم من ادَّعى اللاهوية، وكان مِن أشدَّهم طغياناً وتجبُّراً بعض الذين ذكر الله لنا أسمائهم في القرآن ليكونوا رمزاً للجبروت والطغيان بني آدم، بدأ بفرعون ومنتهياً بأبي لهب الذين كانوا يمثِّلون الرَّدم المنيع لرسالة الأنبياء التوحيد في كل هذه الفترات المترامية الأطراف.

ولما كانت مكة هي قلعة الشرك والرَّدم المنيع لنشر رسالة التوحيد إلى العالمين في المرحلة الأولى من النبوة، نزلت فيها قصص القرآن كلّها بذكر[٢٥] هؤلاء الطّواغيت السبع وغيرهم – ما خلا قصَّة آدم فإنَّها نزلت بمكة والمدينة في سورة البقرة– فقرآن المرحلة المكية

[25] Dhakara Allahu Ta'alā ismun Fir'aun fī sūrataynī madaniyyatayn dūna dhukira al-qiṣṣah nafsuhā – Āli 'Imrān wa al-'Anfāl. [كَذَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ]. Āli 'Imrān 3: 11. [كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ] al-Anfāl 8 :52. [كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ] Al-Anfāl 8 :54.

ركَّزت فقط على التوحيد دون الأحكام التي نزلت لاحقاً بالمدينة المنورة. هذا هو سر ذكر القرآن الكريم صراحة هذه الأسماء السبعة ليمثِّلوا الطغيان البشري في كل زمان ومكان.

أمّا الحديث النبوي، فالأحاديث المدوَّنة في الكتب والتي وصلتنا فالمدنيَّة منها أكثر من المكيَّة، ذلك أنَّ أكثر الصَّحابة روايةً للأحاديث – وهم سبعة – أبو هريرة، ابن عمر، أنس، أم المؤمنين بنت الصِّديق عائشة، ابن عباس، جابر بن عبد الله، أبو سعيد الخدري. إنَّما تحمّلوها عنه بالمدينة وإن كان فيهم بعض المهاجرين. ولستُ أعني بهذا أنَّ ما تكلَّم به النَّبي في الفترة المكيَّة أقل ممَّا تكلَّم به في الفترة المدنيَّة، فقد أقام بمكة ثلاثة عشر عاماً والمدينة عشرة عامٍ ويقتضي ذلك منطقيًّا أن يكون ما تكلَّم به بمكة أكثر منه مما تكلَّم به بالمدينة، إلا أنَّ ظروف الفترتين اختلفت – أمنيًّا، وعدد الصَّحابة – مما جعل ما وصلنا من أحاديثه في الفترة المدنيَّة أكثر مِن الأحاديث المكيَّة[٢٦].

فبعد هجرة رسول الله إلى المدينة المنورة، اختلفت نوعية الصِّراع بين الحق والباطل، فبعد أن كان بين طرفين اثنين، الوثنية الشركية المتمثِّلة في غطرسة قريش، صار بالمدينة بين ثلاثة أطراف المتمثِّلة في التوحيد والمنافقين وأهل الكتاب من اليهود. وكان طرف الموحِّدين هو الطَّرف الأكثر والأقوى بالمدينة خلاف ما كان عليه الأمر بمكة حيث كانوا القلة والضعفاء، وكان الصِّراع في مكة صراع بدني جسمي وجه لوجه، وهو صراع الأقوياء، أمّا بالمدينة فكان صراع مِن نوعٍ آخر، صراع مع نفاق المنافقين ودسيسة اليهود[٢٧]، وهذان سلاحين سلاح الضُّعفاء والجبناء.

كان رسول الله مشغول بتوطيد أركان الدولة الناشئة وإصلاح شؤون المؤمنين وخاصة المهاجرين منهم. ولذلك نلحظ كثيراً في أحاديثه المدنيَّة ، الخطاب موجَّه فيها في الغالب إلى الصَّحابة المقيمين منهم معه بالمدينة المنوَّرة وأعرابهم خارج المدينة المنورة. أمّا المشركين أو اليهود أو المنافقين، وإن كان هناك بعض أحاديثه موجَّهة إليهم إلا أنَّها قليلة.

---

[26] Abdul Karim Toure, *al-Ḥadīth al-Makkī wa al-Madanī Ma'ālim wa al-Ḍawābiṭ* (Malaysia: Jāmi'ah al-Ulūm al-Islāmiyyah, n.d.), 37.

[27] Unẓur sababa nuzul qaluhu ta'ala: [يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ .يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ] Ālī 'Imrān 3 :100.

فالمرحلة المدنية كانت مرحلة بناء وتعليم وإرشاد وتوجيه، والصَّحابة كانوا في أمس الحاجة إلى ذلك لأنّهم كانوا في فترة انتقالية مِن الجاهلية إلى الإسلام. وقد وجدوا في شخص رسول الله خير معلِّم ومرشد وموجِّه في صبره ورفقه بهم في زلاتهم بشهادة العلي القدير حيث يقول تعالى:

[لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ]. التوبة: ٢٩.

فقد كان خير معلِّم ومرشد، كان أسلوبه حين يرى مِن أحد مِن الصَّحابة ما لا ينبغي هو الإشهار بالخطأ لا بالمخطئ، التلميح دون التصريح، وتوجيه النقد إلى ذات الخطأ لا إلى صاحبه إلا ما ندر حيث كان يُصرِّح بالاسم إذا اقتضى الأمر ذلك. هذا ما سوف نتطرَّق له بالأمثلة في السُّطور التالية والله المستعان وعليه التُكلان.

أولاً، تمييز رسول الله بين الصَّحابة في ذكر وتصحيح أخطائهم. رأينا في السُّطور الماضية أنَّ القرآن الكريم في تعامله مع المخطئين كان يتلطَّف مع المؤمنين في ذكر أخطائهم ويغلظ على المنافقين. القرآن الكريم لم يكن يتعامل مع الصَّحابة في تفاصيل ودقائق أمورهم، وكان لا ينزل إلا لعِظام الأمور. أمّا رسول الله فإنَّه سلك مسلك مغاير لهذا، فإنَّه كان يعيش جل أوقاته مع المؤمنين الصَّادقين من الصَّحابة ، وكان يتعامل مع تفاصيل ودقائق أمورهم الدينية والاجتماعية، فمراعات الفروق الفردية بينهم في العلم والإيمان والطبع في مثل هذا الوضع ضروري ليستوعب كلٌّ منهم حسب علمه وإيمانه وطبعه تعليمات الشرع، كان يقبل مِن بعض الأعراب الجفوة والقسوة في التعامل، إذ كان ذلك طبعهم. كان يقبل من بعضهم بعض التصرفات غير اللاحقة ويصححها باللطف والرَّحمة ويغلظ القول على بعض كبار الصَّحابة حين يقعون في بعض ما يُعاتبون عليه التي ما كان ينبغي أن تقع منهم. وإليكم بعض النماذج.

١- معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي الإمام المقدّم في علم الحلال والحرام، ففي الحديث "...وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ[٢٨]...". عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ: يَا مُعَاذُ! وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ...الحديث[٢٩] " وقال " خذوا

[28] Sunan al-Tirmidhī, al-ḥadīth raqmun 3799.
[29] Rawāh Abū Dāwūd, al-ḥadīth raqmun 1522.

القرآن مِن أربعة: مِن ابن أم عبد – فبدأ به — ومعاذ بن جبل، وأُبي بن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة[٣٠] ومع هذا كلّه فحين أخطأ معاذ في أمر ما كان ينبغي لمثله أن يُخطئ فيه، ذكر اسمه وأغلظ له القول.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا :أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ثُمَّ يَأْتِي فيؤم قَوْمَهُ، فصلىَّ ليلة مع النَّبي العشاء. ثم أتى قومه فأمَّهم. فافتتح بسورة الْبَقَرَةَ، فانحرف رجل فسلَّم، ثم صلَّى وحده وانصرف. فقالوا له: أنافقت يا فلان، قال: لا والله، ولآتينَّ رسول الله فلأخبرنَّه. فأتى رسول الله فقال يا رسول الله، إنّا أصحاب نواضح. نعمل بالنَّهار، وإنَّا معاذاً صلَّى معك العشاء، ثم أتى فافتتح بسورة البقرة. فأقبل رسول الله على معاذ فقال: يا معاذ أفتّان أنت؟ اقرأ بكذا واقرأ بكذا وفي رواية قال: اقرأ: والشمس وضحاها، والضحى والليل إذا يغشى، وسبِّح اسم ربِّك الأعلى[٣١]. وفي رواية للبخاري قال : يا معاذ أفتّان أنت؟ قالها ثلاثاً، اقرأ ''والشمس وضحاها''، و''سبِّح اسم الأعلى[٣٢]''.

فأنت ترى أن رسول الله هنا ذكر اسم معاذ وأغلظ عليه القول ''يا معاذ أفتّان أنت؟'' ولعل ذلك لمكانة معاذ في العلم والإيمان، وما مثله كان ينبغي أن يخفى عليه هذا. ألا ترى أنَّ الله تعالى خصَّ أمهات المؤمنين دون سائر النِّساء في مضاعفة العقاب إن هنَّ أتين بفاحشة مبيِّنة وذلك لمكانتهنَّ من رسول الله فقال تعالى: [يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا]. الأحزاب: ٣٠. ولكن هذا شرط والشَّرط لا يقتضي الوقوع.

٢– عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أنَّ أبا هريرة قال: قام أعرابي فبال في المسجد فتناوله الناس، فقال لهم النَّبي ''دعوه وهريقوا على بوله سَجْلاً مِنْ ماء أو ذَنوباً مِنْ ماء، فإنَّما بُعثتم مُيسَّرين ولم تُبعثوا معسَّرين''[٣٣].

---

[30] Ṣaḥīḥ Muslim, al-ḥadīth raqmun 2464.

[31] Muslim bin Ḥajjāj, Ṣaḥīḥ Muslim, kitāb al-Ṣalah, bāb al-Qirā'ah fī al-Ishā', al-ḥadīth raqmun 465.

[32] Al-Bukhārī, *al-Ṣaḥīḥ*, kitāb al-'adhān, al-ḥadīth raqmun 704, wa kitāb al-Ādab, al-ḥadīth raqmun 6106.

[33] Al-Bukhārī, *al-Ṣaḥīḥ*, kitāb al-wuḍū', bāb al-mā'a 'alā al-būl fī al-Masjid, al-ḥadīth raqmun 220, wa kitāb al-Ādab, al-ḥadīth raqmun 6128.

٣- عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَا ثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي، لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ، وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: "إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ، لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ" ، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، وَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالإِسْلَامِ...[٣٤].

انظر كيف تعامل مع من دون معاذ في العلم والإيمان وإن كان الخطأ ليس هو نفسه، فهو لم يعنف بهذا الأعرابي وبمعاوية بن الحكم السَّلمي رضي الله عنهما لأنَّه يعلم طبعهم وحداثة عهدهم بالإسلام فعذرهما ورفق بهما.

كان في الغالب لا يواجه الصَّحابة بأخطائهم بل يلمح بها لهم والمخطئ منهم، فالغرض في هذا هو إمرار الرِّسالة والتعليم والإشهار بالخطأ لا بالمخطئ والتلميح دون التصريح وتوجيه النقد إلى ذات الخطأ لا إلى صاحب الخطأ.

فطبيعة نفس البشرية هي أنَّك إذا نصحتَ إنساناً أمام الناس نَفَرَ ولم يقبل منك النصيحة، أمّا إذا نصحته فيما بينك وبينه سِرّاً قَبِل وشكرك عليها:

قال يحي بن معين: ما رأيتُ على رجلٍ خطأً إلا سترته ، وأحببتُ أن أزين أمره ، وما استقبلتُ رجلاً في وجهه بأمر يكرهه،ولكن أبين له خطأه فيما بيني وبينه، فإن قبل ذلك وإلاَّ تركته[٣٥].

بهذا الأسلوب نفذ إلى قلوب الصَّحابة ، فنعم المربِّي والمرشد كان هو. وهكذا ينبغي أن تكون التعامل على جميع المستويات، الأب مع أولاده المدرِّس مع تلاميذه. فالمؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير.[٣٦]

---

[34] Muslim bin Ḥajjāj, *Ṣaḥīḥ Muslim*, Kitāb al-Masājid, bāb Taḥrīm al-Kalām fī al-Salāh, wa nasakh mā kāna min ibāḥatihi, al-ḥadīth raqmun 537.

[35] Shams al-Dīn al-Dhahabī, *Sīr al-'A'lām al-Nubalā'*, ṭab'ah 13 (Beirut: Muassasah al-Risālah, 1985), 11:83.

[36] Zayn al-Dīn Abī al-Faraj, *Jāmi' al-'Ulūm wa al-Ḥukmi* (Beirut : al-Maktabah al-'Aṣriyyah, 1996), 77.

وها هنا بعض النَّماذج من تصحيحاته بالتلميح لبعض الأخطاء لبعض الصَّحابة. عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: صنع النَّبي شيئاً فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النَّبي فخطب فحمد الله ثم قال ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إنيِّ لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية[٣٧].

عن أبي حميد الساعدي قال استعمل النَّبي رجلاً من بني أسد يقال له ابن الأتبية على صدقة فلما قدم قال هذا لكم وهذا أهدي لي فقام النبي على المنبر قال سفيان أيضاً فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما بال العامل نبعثه فيأتي يقول هذا لك وهذا لي فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى له أم لا، والذي نفسي بيده لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته إن كان بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه ألا هل بلغت ثلاثا[٣٨].

الخاتمة

بعد هذه الجولة في رحاب القرآن الكريم والسنَّة النَّبوية بحثاً عن منهج تعاملهما مع المذنبين والمعاتَبين عند ذكر أخطائهم، فقد توصَّلنا إلى أنَّ بين القرآن الكريم والسنَّة النبوية اختلاف وائتلاف في المنهج والأسلوب عند ذكر أخطاء المذنبين والمعاتَبين، وفيما يلي ذكر لمؤجز ما توصلنا إليه.

١. القرآن الكريم ذكر اسم ثمان أشخاص عند ذكر أخطائهم وهم آدم المسلم الوحيد من بين الثمانية المذكور، وهم وآزر وفرعون وهامان وقارون والسامري وجالوت وأبو لهب.

٢. السبع المذكورين مِن الكفرة ذُكروا فقط في السور المكية، لأنَّهم كانوا رموز الكفر ومعاندين للتوحيد، ومحاور السّور المكيَّة كلّها تدور حول قضية التوحيد والقصص، أمّا اسم آدم فقد ذُكِر في السّور المكيَّة والمدنية – البقرة وآل عمران.

[37] Al-Bukhārī, *al-Ṣaḥīḥ*, kitāb al-Ādab, bāb man lam yuwājahu al-nās bi al-ʻitāb. Al-ḥadīth raqmun 6101, wa al-ḥadīṯh raqmun 7302.
[38] Al-Bukhārī, *al-Ṣaḥīḥ,* kitāb al-Aḥkām, al-ḥadīṯh raqmun 7191.

٣. ذِكر اسم أبو لهب في القرآن الكريم في بدايات الوحي في مكة وأنَّه سيدخل النّار، فيه إعجاز غيبي لأنَّه لم يؤمن بالله ورسوله ومات على الكفر.

٤. لم يُصَرِّح القرآن الكريم باسم أي مِن الصَّحابة الذين أخطأوا، بل كان يُعمِّم الخطاب، ولم يواجه أحد منهم مباشرة عند ذكر عتابه إلا في آية واحدة في أم المؤمنين عائشة وحفصة رضي الله تعالى عنهما. ٥. الحكمة في عدم ذكر القرآن الكريم صراحة أسماء المذنبين هي أنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السَّبب.

٦. القرآن الكريم في غالب خطاباته عند ذكر الأخطاء يتعامل مع كل الأصناف مِن المؤمنين والكفار مِن أهل الكتاب والمشركين والمنافقين ولكنَّه يتلطّف بالمؤمنين ويغلظ على الكفرة والمنافقين.

٧. السنَّة النبوية في غالب خطاباتها عند ذكر الأخطاء تتعامل مع المؤمنين وتشدَّد على كبار الصَّحابة وتتلطَّف مع الأعراب وحديثي العهد بالإسلام.

References

Abī al-Faraj, Zayn al-Dīn. *Jāmi‘ al-‘Ulūm wa al-Ḥukmi*. Beirut: al-Maktabah al-‘Aṣriyyah, 1996.

Al-‘Asqalānī, Ibn Ḥajar. *Al-Iṣābah fī Tamyīz al-Ṣaḥābah*. Beirut: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, 1995.

Al-Bukhārī, Muḥammad bin Ismā‘īl. *Al-Jāmi‘ al-Musnad al-Ṣaḥīḥ al-Mukhtaṣar min Umūr Rasul Allāh sallallah alayhi wa sallam wa Sunanihi wa Ayyahmihi,* ṭab‘ah 1 (al-Qahirah: Maktabah al-Ṣafā, 2002).

Al-Dhahabī, Shams al-Dīn. *Sīr al-‘A‘lām al-Nubalā’*, ṭab‘ah 13. Beirut: Muassasah al-Risālah, 1985.

Al-Ḥajjāj, Muslim bin. “Ṣaḥīḥ Mulim”. Beirut: Dār Ihyā’al-Turath al-‘Arabī, 2000.

Al-Mubārakfūrī, Ṣafī al-Dīn. *Al-Raḥīq al-Makhtūm*, ṭab‘ah 17. Al-Mansurah : Dār al-Wafā’, 2005.

Al-Qurṭubī, Muḥammad bin Aḥmad al-Anṣārī. *Al-Jāmi‘ li Aḥkām al-Qur’an,* tab‘ah 1. Beirut: Dār al-Fikr, 1999.

Al-Ṣābūnī, Muḥammad ‘Alī. *Ṣafwah al-Tafāsīr*. Al-Qahirah: Dār al-Ṣābūnī, d.t.

Al-Tirmidhī, Muḥammad bin ʻĪsā al-Sulāmi. *Al-Jāmiʻ al-Ṣaḥīḥ Sunan al-Tirmidhī,* ṭabʻah 1. Beirut: Dār Iḥyā' al-Turath al-ʻArabiyy, 2000.

Ibn Kathīr, Abū al-Fiḍā' Ismāʻīl. *Tafsīr al-Qur'an al-ʻAẓīm*. Al-Madinah al-Munawwarah: Dār al-ʻUlūm wa al-Ḥukm, 1993.

Toure, Abdul Karim. Al-Ḥadīth al-Makkī wa al-Madanī Maʻālim wa al-Ḍawābiṭ. Malaysia: Jāmiʻah al-Ulūm al-Islāmiyyah, n.d.